القصص

من الحياة

أهل ووطن

للأستاذ كامل محمود حبيب

أرخى الليل أستاره السود القاتمة على دنيا غضبى تزمجر فى صوت عاصفة هوجاء ، وسماء ينهمر منها سيل دافق ، وقد قرّ كل انسان فى داره ، ونامت الحياة فى كل حىّ ، والفتى جالس الى موقد فى زاوية الحجرة ، تغمره لُجة من الأفكار المضطربة ، والخواطر المتناقضة ، تحجبه عن دنيا الناس . لقد رأى نفسه تعصف بها حادثات الأيام فتذروها بددا ، فان مدّ يده ليجمع أشتاتها لم يجد منها الاّ صُبابة من نفس لا تستطيع أن ترد اليه جمال الحياة التى عاش شطراً منها بين أهله وذويه ، فى وطنه الأول حيث ملاعب الطفولة ومراتع الشباب . وجاءته الذكريات من أقصى الطفولة تحمل على أجنحتها لذائذ ولذائذ لتنصبّ فى قلبه هموماً وهموماً ، واضطربت جوانح الفتى أن وقف خياله عند الساعة التى أُفزع فيها عن وطنه وأهله فبكى بكاء الثكلى تفقد صبرها حين تفقد قلبها . ما الذى أزعجك عن وكرك أيها الطير وأنت ناعم على فنن تغرّد ، ترى كل مباهج الحياة عند هذا العش الصغير ؟ لقد ضاقت بك الدنيا لأنك تركت قلبك هناك ... هناك فى هذا العش ... !

لم يكن الفتى كَلاًّ على أحد ، ولم يكن معدماً ، ولم يكن ضعيفاً ولا عاجزاً ، ولكنه هجر وطنه وأهله حين لم يجد فيها جمال الوطن ولا عطف الأهل ، وحين لم يجد بين أهله قلباً كقلب أبيه ينبض له نبضات الحنان والرحمة ، ولا رجلاً فى رجولته يفيض عليه من بسمات نور الحياة وجمالها . ووقف خيال الفتى عند الساعة التى همّ فيها يفارق وطنه وأهله تتجاذبه عاطفتان : قلبه من خلف ، وتأبّيه أن يقيم على الضيم من أمام ! ثم غلبته كبرياؤه فانصاع لها تقوده الى حيث يجد أهلاً غير أهله ، ووطناً غير وطنه ؛ أو لا يجد ...

ماذا كان ؟ ماذا كان أيها المنزوى فى ناحيـة من حجرة تحدث نفسك حديث الماضى ؟

* * *

مرض الفتى فراح يَطبّ لمرضه فى عزم الشباب وقوته ، وأريد على أن يلبث فى مستشفى حيناً ، فما خاطب أهله فى شأنه ، وغاب عنه أن المرض ألم فى الجسم وقلق فى النفس ، وأن الشفاء يحمل الى المريض على كفين : كف الأسى وكف الطبيب معاً

لقد خاف — بادئ الرأى — أن يفزع أهله ان ساق اليهم الخبر فى صورته المزعجة ، فاستأنى حتى ينزع الطبيب مشرطه ،

يا عربُ هيا فانصروا مَوْطِنًا
للعُرْبِ ، هاجَ القِدُّ أفراده

هناكَ شعبٌ عربىُّ الهوى
يحاولُ الغاصبُ إنقاده

يسومُهُ الخسْفَ وأغلالَهُ
ويدَّعى بالنـــارِ إرشاده

ثارَ على ظُلّامِهِ مُكرِمًا
تُراثَه الأسمى وأجداده

مجاهـداً أقسمَ لا ينثنى
أو تُعتِقَ الأطواقُ أجياده

شعبُ فلَسْطين يناديكم
مُستبسِلاً ، يصرَعُ جلاّده

تُدمّرُ النيرانُ أبياتَهُ
وتحصُدُ الأسيافُ أجساده

أخاكُمُ يا قوم ! لا تُهمِلوا
إرفاده اليومَ وإمداده

رِقّوا لِبلْواهُ وثوروا لهُ
حتى يُبيدَ الحقُّ أضداده

فُدُنُهُ تُكْسَوْنَ أبرادَهُ
ونَصرُهُ تَجنونَ أورادَهُ

أحمد الطرابلسى

ليرسل إليهم خبراً هادئاً فيفدون على مهل . وتنفض جملة حاله أمام ابن عمه الشاب فلم ير هذا فى حديثه إلا صفحة من الاعتداد بالذات ، والتفانى فى الوثوق بالنفس ؛ ثم نظر اليه نظرات ذات معنى وقال : « أيضيرك أن تستعيثهم على مرضك ووحدتك ؟ » فقال الفتى : « لا ضير ؛ غير أنى أريد أن أفجأهم بالخبر » قال الشاب « أفترانى أملأ فراغ قلبك حيناً من الدهر ؟ » قال : « ولِمَ لا وقد عرفتك منذ نشأتى تفيض عطفاً وحنانا ، وتسدى النصيحة خالصة للحب وللقرابة ، وتنير لى طريق الحياة بحكمتك فأسير فى سنا ضوء عقلك . لقد كنت لى جماعة فى فرد . والآن ... والآن أريد أن أعرفك فى مرض . » فصمت الشاب وقد حمَّله الفتى العبء وحده ...

* * *

وحمل البرق رسالة الشاب « فتاكم فى مستشفى (كذا) يطب لمرضه وينتظر قدومكم ، لا خوف ... » ثم انطلق الشاب يحمل الى مريضه خبر الرسالة

هل وعى المريض ما قاله الشاب الباسم ؟ لقد كانت وخزات الجرح تنفذ الى قلبه فى مثل طعنات الخنجر وهو يصمد لها فى ثبات وصبر ، وعلى وجهه علامات الضجر ؛ وكان العرق ينضح من جبينه بارداً غزيراً ليرسم عليه صورة ناطقة لآلامه ومتاعبه . واربد وجه الشاب حين رأى الفتى تتعاوره الآلام ، وتتناهبه الأسقام ، ثم ابتسم فى رقة وهدوء ليداعب صاحبه وينزعه من آلامه العميقة ، ولكنه كان يجهد نفسه ليرتد اليه جهده خائباً مخذولاً

وفى أنة المحزون انقلب المريض الى ابن عمه الشاب يقول : « ماذا فعلتَ ؟ ما ذا فعلتَ ؟ انى أريد اخوتى وأعمامى وأهلى ... آه ما شعرت بالوحدة كاليوم ... ! » ورن صدى هذا الصوت الضعيف فى قلب الشاب طعنات من يد القدر فراح يقول له ...

* * *

ومضى يوم ويومان وثلاثة ... ويد الطبيب تمر رفيقة على جرح المريض فيلتئم صدع منه على صدع ، وتنفرج فى قلبه صدوع وصدوع ، لأنه لم يفز بعد برؤية أحد أقربائه ؛ ولم يستشعر الحنان الا من قلب هـذا الشاب الذى يختلس من أوقات عمله فترات من فراغ يقضيها الى جانب مريضه يواسيه ويعطف عليه ويحمل اليه — فيا يحمل — هدية صغيرة ، تنتزعه حيناً من أفكاره المظلمة ...

واستطاع الفتى أن يجلس الى ابن عمه يحدثه : « ما ذا جرى كأنك لم تقص على أهلى خبرى . لقد مضى أسبوع ولم يزرنى سواك . انك تملأ قلبى سلوة وعزاء بجمال جلساتك القصيرة ، ولكن ... » وراح الشاب يتلمس لأهله الأعذار : « من ذا يستطيع أن يقول سأفعل ... لعل حادثاً لم يترام الينا خبره حال بينهم وبيننا ... واضطربت الكلمات على شفتى الشاب حين أراد أن ينزع عن صاحبه بعض أفكاره ، وحين أراد أن يقول له إنه أصاب الهدوء والراحة حين عاقهم ما عاقهم عن أن يسرعوا اليه . اضطربت الكلمات على شفتيه لأنه كان يسمع من أقصى ضميره صوتاً يقول : « أن لا عذر . . . لا عذر اليوم ! » وكان يرى فى إبطائهم استخفافاً وامتهاناً ، غير أن حكمته أبت إلا أن تسدل على عينى الفتى ستاراً من الوهم . وما كان للفتى أن يسمع ، وان سمع فما كان له أن يصدق ، فهو وحده يشعر بالوحدة حين يخلو الى نفسه ، وهو وحده يحس ألم الصدمة . لقد أراد أن يفجأهم بخبر هادئ فانصرمت أيام وما رآهم . وتماثل العليل للشفاء ، وهمّ يريد داراً غير هذه ولم ير منهم أحداً . يا ويح هذا الفتى ! لقد راح يطلب الشفاء من علة فى جسمه ، فملأت الأيام قلبه عللا سلبته لذة الشفاء

* * *

وجلس الفتى الى عمه يعاتبه : « أفكان من العطف أن أنبذ فى حجرة ، وحيداً ، متألماً ، مريضاً ، أقاسى ما أقاسى فلا أجد منكم من يزورنى أو يكتب الىّ ؟ لقد كان أبى منكم بالمكان الذى تعرفونه ، وكنت من أبى من تعرفون ؛ أفلا ترعون حقه فى ابنه الملقى على سرير فى حجرة موحشة لا يجد من يواسيه الا ابن عمه الشاب ؟ » وأحس العم عظم الخطيئة فراح يعتذر : « لقد حجبنا عنك موت احدى قريباتك » وانطلق الفتى يقول : « لقد سعيتم الى الميت وقد انتهى ، ولبثتم حول قبره أياماً تبكون ، لتتركوا الحى الذى لا هو بالحى ولا هو بالميت يستروح نسمات الحياة منكم فلا يجدها . أفبعد هذا تزعمون ، وتزعمون ... ؟ » وسبقت زلة من لسان العم : « ولكن ... ان لك لهنات ! » فأسقط فى يد

الفتى أن سمع عمه يتشفى ، وآلمه أن ينتقم أهله . لقد زل الفتى مرة وكل فتى يزل ، وما كان لهم أن يعاقبوه وهو يحن الى بعض عطفهم ، وما كان لهم أن ينبذوه فى الهاجرة وهو الشوق الى فىء ظلهم . أى أهل ؟ وأى انسانية ؟ واندفع الفتى المنيط : « هذا وقت تنسى الهنات ، وتنطوى الزلات . ان لى لهنات لأنى لم أبلغ سن العقل ، ولكم أخرى لأنكم لم تبذلوا النصيحة . ولقد كفانى أن تبدى لى الأيام ما كان خافياً ، وان تكشف لى الشدائد عن أشياء كنت أجهلها ، وعن أخلاق ظننتكم تترفعون عنها ... » ثم غمرت الفتى آلامه فأمسك ، وترقرقت فى عينيه عبرة حبستها الكبرياء فما تبرح ، غير أن أحزانه ثارت فى نفسه فقال : « لقد ظننتكم أهلى ، وركنت اليكم لأنكم أهلى ، وشمت الخير فيكم لأنكم أهلى . أما الآن فيا خيبة الرجاء ويا ضيعة الأمل ! »

ونزت فى العم سورة من غضب أن رأى الفتى الطائش يلومه فيشتد فى اللوم ، ويعاتبه فيسرف فى العتاب ، وألم أن يقع بينهما تنابذ ، ولكن الفتى كان قد صهرته الفكرة فى بوتقة من الأحزان حين رأى عمه يتعلق بأوهى الأسباب بعد إذ عاتبه أهله على غير جريرة ، فى جفاء وغلظة ، فرجع الى نفسه يحدثها ويرسمها على أن تلقى السلم ، فألفت واضطربت الخواطر فى رأس الفتى ، فتركته موزعا ينحى على نفسه باللائمة أن قال ..

ولشد ما آلمه أن يكون هو ابن أبيه ، ووحيده ، واقتراحه على الله حين أعجزته الأيام عن أن يكون له ولد ، والأمل الباسم فى شيخوخة الشيخ وهو يدب على عصاه فى طريق الفناء ؛ ثم يرى أهله ينبذونه فى مستشفى ، ملق على سرير ، فى حجرة موحشة ، لا يأنس الا بوجه ابن عمه الشاب عصر كل يوم ، ثم هم يغلظون له فى الحديث ، ويشتطون فى العقاب . ولشد ما أحزنه ألا يكون له فى هذا العالم الا ابن عمه يحنو عليه ، وينظر اليه نظرات فيها العزاء وفيها السلوة ، ويدخل الى نفسه بكلام فى رقة الأصيل لينسيه بعض ما همه ؛ وهو كان يرى — عن كثب — الفتى أو الشيخ من أسرته يصيبه بعض ما أصابه هو فينطلق اليه أبناء الأسرة زمراً زمراً يواسونه ، ويعطفون عليه ، وينزعون عنه آلامه وأحزانه . أما هو ... أما هو ... !

وتناهبته الآلام : آلام المرض ، وآلام الوحشة ، وآلام عزوف أهله عنه ، فأخفى ضعفه المنسكب من عينيه فى منديل

* * *

وخرج الفتى من لدن عمه مطوياً على آلام مبرحة تحز فى نفسه ، وتعض على قلبه حين رأى قلوباً تأكلها أحقادها ، وعقولا تعصف بها ترهاتها ، وضاقت الدنيا فى عينيه حين انهار مثله الأعلى حجراً حجراً بعد ما رأى من عمه وما سمع ، فهام على وجهه يطلب الفسحة فى أرض الله ...

وهبت أول نسمة من نسمات الفجر تشهد قلباً كبيرا ينزح عن وطنه ، ويهجر أهله الى حيث تتقاذفه مطارح النوى ، الى حيث لا ينبض لذكره قلب ...

وانصرمت سنون ألبست الفتى شيخوخة باكرة ، ورسمت على فوديه آثار حادثة مروعة استقرت فى خياله فما تريم ، لقد سكن الى وطن وأهل غير وطنه وأهله ، وقلبه ما يزال عند الساعة التى أفزع فيها عن وطنه وأهله يبكى ويبكى ...

ليتك نسيت أيها المنزوى فى ناحية من حجرة تحدث نفسك حديث الماضى ، ليتك نسيت أنك كنت ... !

كامل محمود حبيب

أصدرت مكتبة الجيب

الرحيـــل

قصة امرأة ينقصها فى الحياة الرجل
ورجل يعوزه الايمان بالحياة
تلاقيا مع الصبح وافترقا عند الغسق
فى البسفور الجميل

لمحمود البـــدوى

فى مكاتب القاهرة وثمنها قرشان
ويرسلها المؤلف مع كتابه « رجل » نظير خمسة قروش بما فيه البريد وعنوانه ١٠ شارع الأمير بشير بالخلية الجديدة مصر